

قسطنطينية واطامع حولها

اذا كان الشرق الاذني بمثابة قلب الكرة الارضية فان البلد القائم مقام الكف حيث يتلاقى ساعدا اسيا واوريا ومقام الشفاه حيث يترافق البحران الابيض والاسود ذلك البلد المحصن برأ بوادي الدانوب وحال البلقان وبحراً بالسفوف ومرراً حري بان يعتبر سويداء ذلك القلب

بلى ان قسطنطينية بما هي عليه من المقام الممتاز سواء من حيث الماديات والمعنويات فضلاً عن جاهها ومنعتها الطبيعيين حرية بما قال عنها نابليون « لو كانت الدنيا مملكة واحدة لكانت قسطنطينية اصلح المدن لتكون عاصمة لها »
مقامها الاذني

اذا دققنا في الغاية التي بنى اليونان لاجلها مدينة بيزنطة وفي السبب الذي دفع قسطنطين الروماني من بعد تشييد قسطنطينية على انقاضها قدرنا ما لهذا الثغر من الاستعداد لنشر الآراء والمعتقدات. فقد روى المؤرخون ان اليونان القدماء اختاروا ذلك المركز لانشاء مدينة بيزنطة عام ٦٥٨ ق.م كي تكون مساعدا لهم على بث اللغة والمباديء الهيلانية الى بعيد. وان قسطنطين كان في جملة ما حجب اليه تعمير هذه المدينة والانتقال اليها من روما عام ٣٣٠ م حرصاً على تأييد المسيحية وانتشارها. وقد احسن بذلك صنماً لان فضلاً عن حمايته اتباعها من تعدي اهل روما فقد صارت قسطنطينية كأنها كوكب دري تشع انواره في مختلف الامصار

مقامها السياسي

على انه مهما كان من الغاية التي بنى لاجلها البانون قسطنطينية وما سلفها من المدن في ذلك المكان فلا شك بان السياسة الحربية هي المحور بل هي غاية الغايات. ذلك ان اوريا كانت في حروب متصلة مع الشرق وليس افضل من مقام قسطنطينية لملوكها سواء كانوا من الفاتحين او المدافعين

فهي للفاتح مراتب قريبة من آسيا للهجوم وللضعيف حصن منيع في طرف المملكة بل بمثابة السور الذي يكتنفها

وهكذا كانت لسكل من الرومان الشرقيين وخلفائهم البيزنطيين فضلاً عن انها سهلت لهم بسط نفوذهم على البحر المتوسط الذي كان محور تمدنهم ثم هكذا صارت للعثمانيين من بعدهم حتى ساعدتهم لان يصبحوا مدهاً اسيا والبر والبحر فن قسطنطينية بسط الترك سلطانهم على اوربا الشرقية حتى احاطوا بقيتها ثلاث مرات . ومنها جرت اساطيلهم لغزو بعض حزر البحر المتوسط وسواحلها حتى اوقعت الرعب في اواسط اوربا فضلاً عن اطرافها وما كان للترك قبل استيلائهم على طاصعة البيزنطيين عمارة بحرية ولكن لم يمض على ذلك حين من الدهر الا وصارت لهم سيادة البحار. فقد تغلبت دولتهم في حكم بايزيد الثاني على اسطول البندقية التي كانت تعد وقتئذ بمصاف الدول البحرية العظمى . ثم انتصرت انتصاراً عظيماً على اساطيل الدول المتحدة عام ٩٤٥ هـ — ١٥٤٧ م وفضلاً عن ذلك فانها تمكنت ان تجعل من ثم البحر الاسود كأنه حوض عثماني صرف لا اثر للاجنبي فيه ولا حولة وذلك ما لاحدا بغاليتين معتمد القيصر بطرس الاكبر في الباب العالي ان يكتب عنه ما يأتي :

« ان السلطان يعتبر البحر الاسود كداره الخاصة حيث لا يباح الدخول لاجنبي اليه او كعدراء في خدرها بين حرمه وهو يحنار الحرب على ان يسمح لمراكب الاجانب ان تمخر فيه » (١)

على انه لما كان رب البيت ادري بالذي فيه فحسبنا دليلاً على مقام قسطنطينية السياسي ما اورده الوزير جودت باشا بحق عن استفاده دولته منها حيث قال : « لما فتحت الدولة العلية الاستانة استقر لها المقام فيها فبلغت سطوتها درجة الكمال واستكملت اسباب الغلبة على سائر دول اوربا في مدة يسيرة . ولو لم يساعدها القدر على فتح القسطنطينية لما استطاعت ان تبلغ هذه القوة وهذا الاقتدار » (٢)

مقامها الاقتصادي

ان مركز قسطنطينية الجغرافي افصح من القلم في نبيان مقامها الاقتصادي ولذلك فلا نرانا في حاجة للاسهاب في هذا الشأن بل كفانا ذكر ما قاله بلاشت فيها : « ان مرفأها الفخم في القرن الذهبي كان محور تجارة العالم طراً فبتاسها السهل

(١) Pinon, l'Europe et l'Empire ottoman P 171.

(٢) تاريخ حوادث . ج ١ ص ٤٢

مع كل من اوربا بطريق الدانوب الواسعة وافريقية بوادي النيل واسكندرية
وأسيا التي لم تكن مفصولة عنها بغير مجاز بحري كانت مستودع الثروات وسوق كل
من الشرق والغرب الكبرى» (١)

مقامها الطبيعي

وما مقامها الطبيعي ولاسيا من حيث الجمال والمنعة معاً في حاجة الى الوصف.
فمن ذا الذي لا يعلم ذلك ولا يعرف جمال البوسفور ومنعة الدردنيل اما بالسمع
او بالعيان. هذا وحسب قسطنطينية لتكون رائعة في جلالها عظيمة في منعتها
ولو لم تتعهدا ايدي البشر موقعها الطبيعي

المطامع حولها

مدينة الى هذا الحد فائقة في جلالها ومقامها الحربي والادبي وممتازة في مكانها
سواء منها السياسية والاقتصادية لا بدع ان تصبح هدف انظار الفاتحين ومحط
آمال الطامعين

وكان اول من حاصرها زابركان الزعيم البلغاري ولكن باليوز استطاع ان
يدفع اولئك البرابرة بمساعدة الاهالي رغمًا عن قلة الاجناد (٥٥٩ م). ثم تعرض
لحصارها بعد جيل من ذلك خسرويه شاه الفرس (٥٥ = ٦٢٦ م) ولكن هرقل
استطاع ان يجبره على الانسحاب (٢) متخلياً عن امصار واسعة امتلكها فكان
ذلك مصداقاً للآية الكريمة التي وردت تبشيراً للمسلمين حين شمت بهم كفار العرب
لانكساراً صحابهم الروم اهل الكتاب وهي (الم. غلبت الروم في ادنى الارض و
من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين لله الامر من قبل ومن بعد)

على ان مسلمي العرب وان كانوا اميل الى الروم من الفرس لان اولئك اهل
كتاب مثلهم الا انهم لما هبوا للفتح استوى عندهم الجميع وصارت عاصم
البيزنطيين هدف امانهم الاساسية

العرب وقسطنطينية

اورد محمد بك فريد في كتاب تاريخ الدولة العلية ان العرب محاصرت قسطنطينية
سبع مرات عددها فقال: «فحاصرها معاوية في خلافة سيدنا علي سنة ٣٤»

(١) Blanchet; Hre. du Moyen Age P 83.

(٢) Nouveau Larousse illustré T 111 P. 221.

(٦٥٤ م) وحاصرها يزيد بن معاوية سنة ٤٧ هـ (٦٦٧ م) في خلافة سيدنا علي ايضاً وفي سنة ٩٧ هـ (٧١٥ م) حاصرها مسلمة في زمن الخليفة عمر بن عبد العزيز الاموي وحوصرت ايضاً في خلافة هشام سنة ١٢١ هـ (٧٣٩ م) وفي المرة السابعة حاصرها احد قواد هارون الرشيد سنة ١٨٢ هـ (٧٩٨ م) .

ويظهر ان في روايته سهواً . ذلك ان حصار العرب اياها كان عام ٤٨ في خلافة معاوية وليس ٤٧ في خلافة علي لان خلافة علي استمرت منذ ٣٥ هـ الى ٤٠ وكذلك فان حصارهم اياها الثالث كان عام ٩٨ هـ في خلافة سليمان بن عبد الملك وليس عام ٩٧ في خلافة عمر بن عبد العزيز لان خلافة ابن عبد العزيز استمرت من سنة ٩٩ الى سنة ١٠١ للهجرة

وانه فضلاً عن ذلك فانه لم يتأكد لدي محاصرة العرب القسطنطينية اكثر من اربع مرات كما يأتي

(اولاً) في خلافة علي حاصرها معاوية بن ابي سفيان (١) (٣٤ هـ ٦٥٤ م)
 (ثانياً) في خلافة معاوية حاصرها سفيان بن عوف (٤٨ هـ ٦٦٨ م) فقتل وقتل ابو ايوب الانصاري (٢) ودفع العرب عنها قسطنطين يوكونا
 (ثالثاً) في خلافة سليمان بن عبد الملك حاصرها اخوه مسلمة (٣) (٩٨ هـ ٧١٧ م) فانقذها فيام آل ازوريان على عرشها
 (رابعاً) في خلافة المهدي حاصرها اخوه هارون الرشيد ١٦٥ هـ ٧٨١ م
 فافتديت بسبعين الف دينار كل عام (٤)

ولكن مهما يكن من عدد المرات التي حاصرها العرب فيها فهي قد لبثت محتفظة باستقلالها . وساعد على ذلك انصراف العرب عنها بعد الامويين لاشتغال العباسيين بالمران والعلوم مكتفين بما صار لهم من بسطة الملك الافرنج وقسطنطينية

على ان مدينة قسطنطين الجميلة وان انصرف عنها العرب بعد ان طالجوها مراراً فانها لم تسترح من بعد من مغية مطامع الفاتحين . ذلك انه لما هجز عنها الشرق حيناً شرع الغرب يتعرض لها . ابتداء الروس فاغاروا عليها في عهد ميخائيل الثالث

(١) ابن الاثير ج ٣ و Hre. de l'Empire ottoman P 99

(٢) ابو الفدا ج ١ ص ١٨٦ (٣) ابن الاثير ج ٥ ص ١٢ (٤) المذكور ج ٦ ص ٢٧

٢٢٨ — ٢٥٣ هـ ٨٤٢ — ٨٦٧ م ولاوون السادس (١) ٢٦٩ — ٢٩٩ هـ
 ٨٧٨ — ٩١١ م ثم طاودوها عام ٤٣٥ هـ — ١٠٤٣ م فلم يفلحوا بكل غزواتهم
 اكثر من العرب (٢) . وذكر ابو الفدا ايضاً ان الصقالبة حاصروها سنة ٢٨٣ هـ
 ٨٩٦ م . ولما لم يجد ملك الروم منهم خلاصاً جمع من عنده من اسارى المسلمين
 واعطاهم السلاح فكشفوهم وازاحوهم عنها (٣)

غير ان قسطنطينية التي استطاعت بالقوة ان تدفع عنها كل طامع لم تلبث فيما
 بعد الا قليلاً حتى خصمت للغريب بغير حرب (٤) وكان ذلك مصداقاً لما ورد
 في الانجيل الكريم « كل مملكة تنقسم على نفسها تخرب »

ذلك انه لما خلع الكسي الثالث اخاه اسحق لانج عن عرش الروم استنجد
 هذا بيدوين دوفلاندر احد زعماء الحملة الصليبية الرابعة لما وصل الى البندقية
 ليجتاز منها الى فلسطين فلباه واطاده الى عرشه ولكن موت اسحق بعد قليل
 اخلى العرش الى بدوين وهكذا تغلب اللاتين ٥٧ عاماً على قسطنطينية (٥)
 ٦٠٤ — ٦٦٠ = (١٢٠٤ — ١٢٦١) وكان هذا التغلب السياسي فاتحة عهد
 لتغلب حربي حظي به الترك بعد قرنين

الترك وقسطنطينية

جوهرة ثمينة مهدلة على نحر المجد تشخص اليها الالظار . هكذا كانت عاصمة
 البيزنطيين . ولذلك فان كل امة كانت تشعر بنفسها القوة تهب لاغتيالها ولكن
 طالما حاول عبثاً الطامعون حتى اذا تغلب الترك على ديار الاسلام وولوا وجمعهم
 كسواهم شطرها خدمهم الحظ ففتحوها

وقد لوحظ طمعهم فيها منذ تشكيل سلطنة السلاجقة فان مؤسسها ارطغرل
 بك سير الشريف ناصر الدين بن اسماعيل رسولاً الى ملكة الروم فاستأذنها في
 الصلوات الخمس بجامع قسطنطينية جماعة يوم الجمعة فاذنت له في ذلك فصلى وخطب
 للامام القائم العباسي . وكان رسول المستنصر العبيدي صاحب مصر حاضراً فانكر

(١) مرآة الايام ص ٢٤٧ (٢) ابن الاثير ج ٩ ص ٢٧٤

(٣) ابو الفدا ص ٢٦٢ (٤) ابو الفرج ص ٣٩٦

(٥) Larousse illustré P. 1018.

ذلك وكان من اكبر الاسباب في فساد الحال بين المصريين والروم (١) ثم كان انتصار خلفه الي ارسلان على البيزنطيين واسره امبراطورهم ارمانوس وتزويجه ابنة من ابنته وسيلة لزيادة مطامع الترك في دار السعادة وبسط نفوذهم عليها ولاسيما لما كان من انتقادهم بما هناك لعائلة الزوج من الحقوق في ارض الزوجة (٢) . ولكن لم يتم للسلاجوقيين ما ارادوا لما نشب بينهم من الانشقاق العائلي . واما تركوا تحقيق ذلك الي العثمانيين الذين نشأوا على انقاضهم . وورثوا تلك الامنية في جملة ما ورثوه من املاكهم وتقاليدهم . لا بل ان العثمانيين مذ كانوا امراء تحت ساطة سلجوقي قونيه ولوا وجوههم شطر الامبراطورية البيزنطية اتخذ العثمانيون عواصم متعددة لهم . فانتقلوا من قره جه حصار الي يكي شهر (٦٩٩ هـ - ١٢٩٩ م) ثم منها الي بورصة (٧٢٦ هـ - ١٣٢٥ م) ثم منها الي ديمتوقه (٧٦٣ هـ - ١٣٦١ م) ولما استصعبوا الاستيلاء العاجل على قسطنطينية انتقلوا الي ادرنة (٧٦٣ هـ - ١٣٦١ م) (٣) فطوقوها تقريبا باملاكهم ثم شرعوا يحاولون الاستيلاء عليها

فحاصرها اولاً بيلديرم بايزيد طامي ٨٠٠ هـ ١٣٩٧ م و٨٠٣ هـ و١٤٠٠ م وطولا افارة تيمورلنك عليه لفضى منها وطراً ولكنهُ عاد عنها مكتفياً باستيفاء عشرة آلاف ذهب سنوياً على ان يحق له زيادة على ذلك ان يبني فيها مسجداً ويقم محكمة ثم حاصرها الامير موسى اخو السلطان محمد جلبي (٨٠٦ هـ - ١٤٠٣ م) فالتجأ امبراطورها الي السلطان المذكور فأنجده على اخيه لما كان بينهما من الشقاق وازاحاه عنها

ثم حاصرها مراد الثاني (٨٢٥ هـ = ١٤٢٢ م) ولكن عصيان اخيه مصطفى صرفه عنه ايضاً

ثم حاصرها اخيراً السلطان محمد الفاتح (٨٧٥ هـ - ١٤٥٣ م) فتم له ما لم يتم لاحد قبله اذ دجاها عنوة ونقل اليها عاصمة سلطنته فكانت في جملة العوامل لعظمة العثمانية في البر والبحر

(١) ابن خلكان ج ٢ ص ٤٤٢

(٢) L. Cahun, Introduction de l'Histoire de l'Asie P. 191.

(٣) سالتامه از مير ص ١١٠

الدول وقسطنطينية

لم تحسد امة كما حسد العثمانيون على فتحهم عاصمة البيزنطيين ولاسيا في اوربا فان نزول التركي في طرف اوربا الشرقي واستيلائه على المدينة التي هي بمثابة المدخل للغرب او الحصن المنيع له اُغلى مرآجل الحقد في نفوس الدول ولا يزال فعقدوا المحالفات المتواصلة لدفع الغريب واخراجِه

ولكن قوة الدولة العثمانية كفلت لها في البداية التغلب على مطامعهم ثم لما شرعت قوتها تنحل صار لها ايضاً في التوازن السياسي حافظاً

وكان الروس اول الطامعين في عاصمة العثمانيين فانهم اذ طمحووا بان يمثلوا امبراطورية الرومان الشرقية توجهت انظارهم الى عاصمتها ولاسيا في حكم بطرس الأكبر : وفي سنة (١١٨٤ هـ - ١٧٧٠ م) طوق الاسطول الروسي اوربا الغربية قاصداً الى استانبول وبعد ان دمر العمارة العثمانية واتخذ جزيرة لمنوس قاعدة لاعماله الحربية هب الترك لتحصين الدردنيل بادارة البارون دي توت الفرنسي ولتحويل المراكب الى اسطول حتى قطعوا امل الروس من النجاح فقفلوا راجعين ثم لما هب قابليون لاكتساح العالم واتحدت الدول عليه كبر على كل من انكلترا وروسيا ما صار لسفيره سباستياي لدى الباب العالي من النفوذ . ولما لم ترض تركيا ان توافقهما على اخراجه من دار السعادة اشهرت عليها الحرب (سنة ١٢٢١ هـ - ١٨٠٧) وقبل ان تتمكن العثمانية من تحصين الدردنيل عبر فيه الاسطول الانكليزي للاستيلاء على عاصمتها . ذلك بعث في الترك همة لا توصف وبمعاونة سباستياي اجبروا الاميرال دو كورث الانكليزي على الانسحاب خاسراً مركبين خوفاً من خسارة الجميع فيما لو تم انقطاع خط الرجعة

ثم اتى على ذلك اكثر من قرن ورغم ما اصاب تركيا في اثنائه من الضعف لم يتعرض بعد احد لاستامبول وقد صارت امنع من جهة الاسد ولاسيا في عهد عبد الحميد الثاني الذي كان اهتمامه في تحصين كل من الدردنيل والبوسفور من قبيل المحافظة على سلامته ومعلوم الى اي حد كان لهذا السلطان عناية بالمحافظة على نفسه . وما جرى بعد ذلك من سنة ١٩١٢ الى الآن معلوم لدى القراء